

مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش - من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

**The issue of fate and destiny in Islamic thought and its impact on our living reality -From the jurisprudential presentation and its formation of the social proof to Muhammad Shahrour's perception of the issue-**

مبارك بوعلي<sup>1</sup> \*

<sup>1</sup>جامعة العربي التبسي – تبسة (الجزائر) mebarek.bouali@univ-tebessa.dz

تاريخ القبول: 2022/05/10

تاريخ الإرسال: 2021/10/06

**ملخص:**

في هذا البحث نود أن نتطرق إلى مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وبالضبط إلى الطرح الفقهي لهذه المسألة باعتبار الفقه يشكل المجال الأكثر تداولاً في ثقافتنا العربية الإسلامية، ويزود الأثرية وعلى الدوام بمختلف الأحكام الشرعية في أدق تفاصيلها، ومن ثمة تشكيل العقل الجمعي، وتأثيره على واقعنا المعاش، ونقابل ذلك الطرح بقراءة محمد شحرور (1938م- 2019م) الأكثر عقلانية والمختلفة عن الطرح الفقهي لهذه المسألة، حيث يعتبر محمد شحرور من المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بتجديد الخطاب الديني، وإخراجه من المحلية إلى العالمية، وذلك من خلال التعامل مع التنزيل الحكيم بآليات ومناهج جديدة، تتماشى مع الأرضية المعرفية للقرن الواحد والعشرين، دون الخوض في تاريخ تساؤلات هذه المسألة، وكيف قاربتها مختلف الاتجاهات الفلسفية والكلامية والدينية .

**الكلمات المفتاحية:** القضاء، القدر، الطرح الفقهي، مسألة، تصور محمد شحرور.

**Abstract**

In this research, we would like to address the issue of fate and destiny in Islamic thought, namely the jurisprudential presentation of this issue, as jurisprudence is the most prevalent area in our Arab-Islamic culture. Jurisprudence always provides the majority with various Islamic provisions in their most precise detail, hence forming the social proof and its impact on our living reality. We meet that presentation with Mohamed Shahrour's different reading on the jurisprudential presentation of this issue that goes beyond its limitations, Mohamed Shahrour(1938-2019) is one of the leading thinkers who souhtrene wal of religious discourse, he contributed to its universalism through the use of new approaches in reading the holy Qu'ran. without going into the history of this issue's questions and how different philosophical, rhetorical and religious trends have approached it.

**Keywords:** Issue, Fate and destiny, Jurisprudential presentation, Muhammad Shahrour's perception.

\* المؤلف المرسل.

مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش  
- من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

1- مقدمة

إن الحديث عن مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي، هو من جهة حديث بالدرجة الأولى عن إسهامات تطوير الفكر الإسلامي، ومن جهة أخرى تكوين رؤية حضارية واضحة للشخصية الإسلامية عن طريق أهم اجتهادات المباحث الإسلامية للمفكر الإسلامي محمد شحرور، وتصوره لهذه المسألة، دون الخوض في تاريخ تساؤلاتها، وكيف قاربتها مختلف الاتجاهات الفلسفية والكلامية والدينية ... وإن كنا سنشير إلى الطرح الفقهي التقليدي لهذه المسألة باعتبار الفقه يشكل المجال الأكثر تداولاً في ثقافتنا العربية الإسلامية، ويزود الأكثرية وعلى الدوام بمختلف الأحكام الشرعية في أدق جزئياتها المرتبطة بحياتهم مباشرة، سواء المادية أو الروحية، "ومن ثمة يعمل على تركيب الذهنية الوجدانية وسلوك العامة" (عبد الجواد ياسين، 1998، صفحة 60)، وما نتج عنه من مقولات تراكمت قدسيتهما عبر تاريخ طويل بفعل التكرار والتأكيد عليها، وبقيت محصنة ضد النقد والمراجعة الجذرية، ولا تزال بتلك الكيفية رغم التطور في ميادين الفكر المختلفة، والمناهج المتعددة، وآليات المعرفة المختلفة.

وهدي في هذا البحث هو توضيح رؤية محمد شحرور لهذه المسألة، باعتباره يؤسس لقراءة عقلانية جديدة ومساهمة يراها مختلفة عن المساهمات الفقهية السابقة، وذلك بإبراز الإشكالية التالية.

فيم يمكن تحديد مساهمات محمد شحرور في مسألة القضاء والقدر؟ وكيف وضع هذه المسألة باعتباره من أهم الباحثين المعاصرين الذين تناولوا هذه المسألة، بشكل مختلف عما هو سائد ومعروف لدى العقل الجمعي الذي شكله الطرح الفقهي من خلال فهمه لمسألة القضاء والقدر؟

الإجابة عن هذه الإشكالية تقتضي منا التطرق إلى مسألتين هما:

تمثل المسألة الأولى في تأثير الطرح الفقهي على العقل الجمعي، وتكوينه من خلال فهمه لمشكلة القضاء والقدر، وما خلفته من آثار عليه نتيجة إقرارها بمطلقية ذلك الفهم والقراءة، وقد ساهم في ذلك بشكل أساسي الخطاب المسجدي، ومناهج التدريس والمقررات في المدارس، وحتى الخطاب الثقافي في بعض الفضاءات الجامعية والإعلامية.

أما المسألة الثانية فتتمثل في النظر وتحليل موقف محمد شحرور لمشكلة القضاء والقدر، وكذلك نقده للقراءة الفقهية السابقة من خلال البعض من مؤلفاته.

2. إشكالية القضاء والقدر وتأثيرها على العقل الجمعي من خلال الطرح الفقهي لها:

1.2. العقل الجمعي ومسألة القضاء والقدر:

يتشكل العقل الجمعي بفعل التأثير المزمّن لمنظومة من العوامل التربوية والثقافية والاجتماعية، من عادات وتقاليد، وإيمان ديني وغير ديني، وتأثير جملة من المفاهيم في حقب تاريخية مختلفة، تنشأ عليها مجموعة اجتماعية معينة، حيث يصبح مظهر جمعي يصعب سلوك الأغلبية، أي تجسيد لما يؤمن به أو يتشارك به المجتمع من رؤية أو تفكير، ويصبح بمثابة موجه للفرد في حياته ومسيطر عليه، ومحدد لانطباعاته وتفكيره ومواقفه إزاء الأحداث والأزمات التي يعيشها، وهذا ما يثبته واقع المجتمعات التي يسيطر عليها العقل الجمعي المكون بفعل عوامل ثقافية متعددة ويوجهها، ونحن جزء منها.

حيث بينت الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والصحية ... التي يعيشها العالم في مطلع هذا القرن ومنذ عقود، ونحن العرب والمسلمون جزء منه، أن منظومتنا الفكرية غير مهيأة أمام أي اختبار حقيقي يختبر جاهزيتها للتعامل معه، ففي الوقت الذي تسعى فيه دول العالم إلى إحراز مزيد من التقدم العلمي الذي يخدم جوانب التنمية الشاملة ويضع الحلول لمشكلاتها الواقعية، ويساعد على مواجهة التحديات الكبيرة التي تواجهها داخليا وخارجيا، وتتسابق في ذلك للسيطرة على الأزمات والبحث عن علاج لها، استيعابا منها بأن العلم والمعرفة هما أداتا التمكين في هذا العصر، نلجأ نحن العرب والمسلمين إلى عالم الأفكار الميتة والمميتة بتعبير مالك بن نبي (مالك بن نبي، 2002، صفحة 149)، الذي نعيش ونتغذى عليه، والذي أسهم وما زال يسهم بفاعلية في بلورة وصياغة الوعي الجمعي، وقيادة الأحداث على أرض الواقع، والأخطر أنه ليس عامة الناس أو الفئات ذوي الثقافة المحدودة هم من يتغذون على ذلك، بل وصل الأمر إلى أصحاب الشهادات العليا وطلبة وأساتذة الجامعات، والذين هم من يفترض أنهم يوجهون الرأي العام ويساهمون في صنع العقل الجمعي، وذلك بالبحث عن شماعة نعلق عليها تخلفنا العلمي وعدم القدرة على مواجهة الأزمات، وهذه الشماعة هي القضاء والقدر، وهي طريقة تعتمد على ربط كل حدث بمشيئة الله وإرادته، فكل ما يحدث هو قدر محتوم لا إمكانية لمقاومته أو محاولة تغييره، سوى الاستسلام واللجوء إلى قوة غيبية وتفويض الأمر لها دون البحث الجاد عن الأسباب، "ودراسة الإمكانيات المتاحة والممكنة للحلول والعمل الجاد على تنفيذ الحلول" (محمد كمال مصطفى، 2016، صفحة 157)، ويصل الأمر إلى حد استعادت التفسيرات السابقة للظواهر الطبيعية واللاهوتية منها على وجه الخصوص، كالقول بغضب الله وانتقامه منا، وكلنا يسمع ويقرأ تلك التفسيرات المتداولة في مواقع التواصل الاجتماعي، وفي مختلف الفضاءات التي واكبت ظهور فيروس كورونا في أول انتشاره في الصين، بأنه عقاب من الله ضد الصين نظرا لما قامت به من مجازر ضد الأقلية المسلمة (الروهينغ)، حتى نسمع البعض يتحدث عن اللباس بالنسبة للمرأة، ويشبهه كما مات

## مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش

- من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

الحماية التي يضعها الصينيون للوقاية من العدوى بنقاب أصبح مفروضاً عليهم، بعد حملة منع النقاب للمسلمات في بعض دول الغرب، وهكذا اختلط الوعي الذي هو شأن وضعي للإنسان، فيه حرية الاختيار والإقرار بالوحي الذي هو شأن إلهي يحتاج إلى فهم جاد ليخدم الوعي لا ليعرقله، ومن ثمة توظيف التدين بشكل خاطئ، حتى تحولت الظواهر الدينية إلى ظواهر مرضية نعتقد أنها طبيعية بسبب تكرارها في كل الفضاءات، "فمنذ أن يولد الفرد في هذه البيئة الثقافية يتعرض لعملية خصاء ذهني" (مصطفى حجازي، 2005، صفحة 219) وعملية صد لطاقاته الحيوية، وذلك بتقبل مصيره ويحاول إيهام ذاته بتقبل هذا المصير الذي يتخذ طابع القدر والنصيب" كتب عليه الشقاء" ولا سبيل لتغييره، ويترك الفرد اتخاذ الأسباب، ويلجأ إلى الدعاء في شكله اللفظي، حتى أنه حوّل النص الديني إلى شكل دون مضمون، وهذا ما يتجلى في إقباله على الشعائر الدينية دون التطبيق الحياتي والسلوكي لها، فترى المسلم في الواقع يحصي عدد الركعات ويحفظ ويردد الأذكار والآيات القرآنية يتلوها دون العمل بمقاصدها، وهذا زاد في تخديره إلى حد أنه أصبح يقول ويتلفظ بعبارات لغوية لا يعي معناها ومصاديقها، من قبيل "سبحان الله"، "ما شاء الله"، "اتق الله"، "إن شاء الله" في كل آن وحين، "وهي أبرز نموذج على وسواس العجز القهري الذي يرى أننا عاجزين عن أي انجاز أو عمل أي شيء حتى "فتح الباب" دون ترداد هذه العبارات" (حسن الوداعي موقع نت، 2019)، مخالفاً بذلك واحداً من أهم قوانين الحياة وهو قانون السببية، الذي نتج عنه غياب كلي للتفسير بالأسباب، وعدم القدرة على النقد والتحليل والتركيب، ويستبدل ذلك بعبارات نسمعها في كل مكان وأثناء الحوادث من أبسطها إلى أعظمها، من قبيل "المؤمن مصاب"، "لي كاتبة تلحق"، "مكتوب الله"، "لي مكتوب في الجبين تشوفو العين"، "ابتلاني الله"، "الله ينتقم منك"، "أعطاه الله"، "أصابو الله" ... "لا راد لقضاء الله وقدره"، "قدر الله ماشاء فعل" ... بتلك العبارات الدارجة أو العامية يجلس الفرد المتشبع بذلك الفهم الخاطئ لمسألة القضاء والقدر، وينتظر النصر أو الإخفاق الذي وعده الله به، دون تكليف نفسه عناء البحث في أسباب الظواهر وفك علاقاتها ببعضها البعض بمجهوده العقلي وقدراته الذاتية الكامنة فيه.

### 2.2. الطرح الفقهي لمسألة القضاء والقدر

إن البحث في مكان هذا الفهم لمسألة القضاء والقدر، ومن خلال الحفر في تلك المقدمات والمعطيات السابقة التي شكلت ذهنية الفرد العربي المسلم، حتى تحول إلى عقل جمعي مغلق البني، يتضح أنها تعود لرواسب فقهية وقراءات كان تأثيرها عميقاً في ذلك العقل، وفق سيرورة مركبة ومتداخلة أدت إلى سلب الأفراد لإرادتهم دون وعيهم، وبفعل التشدد في القراءة الظاهرية لنصوص الدين، أدى بدوره إلى إخفاء القيمة الحقيقية له، وهي قيمة الفهم لمحتوى النص الديني ومقاصده في كل زمان ومكان.

حيث نجد أن المنظومة الفقهية التقليدية، هي المصدر الأول في فهم مسألة القضاء والقدر الذي ترجع إليه الإجابات والمواقف والخيارات الجاهزة المذكورة آنفاً، وهذا من خلال اعتمادها مباشرة على نصوص سواء من القرآن أو السنة، "والجانب الظاهر في الأحكام هو المنظومة السننية خاصة من خلال الأحاديث في هذه المسألة واستغلالها لأغراض سياسية" (كمال الحيدري، 2012 الصفحات 151، 152)، وذلك على خلفية الفصل بين الإيمان والعمل، وجعل الأول هو المعيار حيث لا تضر مع الإيمان معصية، "وقد ساعدت السلطة السياسية والحكم الأموي على ظهور هذا الفكر الجبري الذي يرى أن الإنسان لا إرادة له في أفعاله فهي مقدرة له من الله ومحكوم بها عليه سلفاً، والهدف من كل ذلك هو تبرير التحولات السياسية" (الحيدري، 2012، صفحة 153).

وهكذا فآثار روح الجماعة التي تمتد من جيل إلى جيل عبر فترات التاريخ كلها عوامل وظروف تؤسس لنا عقل جمعي قوي بسلطة قهرية على الأفراد، تدفعهم إلى تحديد سلوكياتهم وأقوالهم واعتقاداتهم.

وهنا يجب أن نشير إلى أن مسألة القضاء والقدر ليست جديدة، بل هي قديمة قدم الإنسان نفسه، وليست خاصة بدين معين أو فلسفة دون أخرى، "فهي مطروحة في كل دين وكل مذهب وكل فلسفة" (أشرف حافظ، 1999، صفحة 13)، غير أن حدود هذا البحث تتناول المسألة من زاوية واحدة هي الزاوية الفقهية.

فلا شك أن القضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة التي بينها رسول الله محمد - عليه الصلاة والسلام- حين سأله "جبريل" عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره" رواه البخاري ومسلم في الصحيحين " والأحاديث في مسألة القضاء والقدر كثيرة ومتعددة، وبذلك يعتبر الإيمان جزء من عقيدة المؤمن ولا يصح إيمانه إلا بالإيمان بالقضاء والقدر.

ومن القرآن كثيرة هي الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر منها قوله تعالى: ( **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا** ) "الفرقان 02"، حتى قال ابن عباس(618م-687م): " كل شئ بقدر حتى وضعك يدك على خدك" (النجاري، 2005، ص 69) ، وقال الإمام أحمد بن حنبل(780م-855م) -رحمه الله-: " القدر قدره الله"، فالواجب على الإنسان في هذا الباب أن يؤمن بقضاء الله وقدره، وأن يؤمن بشرع الله وأمره ونهيه، وعليه تصديق الخبر وتنفيذه للأمر ولا يلزم أن يعلم تفاصيل الحديث عن الإيمان بالقضاء بل يكفي الإيمان بالمجمل ويستدل على ذلك بقول الرسول "إذا ذكر القدر فأمسكوا" (الألباني، 1997، صفحة 34).

وهكذا يفهم من خلال الآيات والأحاديث السابقة أن معنى القضاء هو حدوث الشيء أو الفعل بأهميته وخاصته وصفته وكيفيته وكميته في الزمان والمكان حسب إرادة الله، "أما القدر

## مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش

### - من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

فهو تقدير كل شئ تقديرا مسبقا على خلقه وحدوثه أي تحديد ماهيته وخاصيته كما وكيفما وزمانا ومكانا" (فاروق أحمد الدسوقي، 1985، الصفحات 323، 324).

يقول ابن تيمية (1263م-1328م) الملقب بشيخ الإسلام في ذلك: " مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شئ ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بنفسها وصفاتها القائمة بها أفعال العباد وغير أفعال العباد، أنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يكون شئ إلا بمشيئته وقدره" (ابن تيمية، 1997، صفحة 449).

وبالعودة إلى هذه الأحاديث والآيات نجد أن الفهم الذي وصل إلى العقل الجمعي، وطبع فيه هو دعوة الناس إلى الاستسلام للواقع البائس، بدعوى الرضا به باعتباره قضاء الله وقدره، وأن محاولة تغييره والثورة عليه تمرد على ما كتبه الله لنا، خاصة عندما يزيد في تبريره بعض المتدينين، ويسوقون في استسلام تام "دع الخلق للخالق"، وهذا ما نتج عنه الواقع المعاش لهذه الأمة التي تتقاذفها الأمواج يمينا وشمالا، وتلتفت إلى كل الاتجاهات باحثة عن منقذ لها ولا تكلف نفسها البحث في مشاكلها وحلول لها بأدواتها واجتهاداتها التي يقدمها لها الإيمان بالأسباب الوضعية، وتلك هي النتيجة البديهية للمقدمات التي صنعناها نحن بأيدينا، فلا هي فهمت كتاب الله وأحاديث الرسول فهما صحيحا يخرجها من أزمته، ولا هي بحثت في الواقع وأسبابه وتقدمت مثل باقي الأمم.

غير أنه لا يمكن الجزم أن القراءة الفقهية هي فقط الحاضرة في القضاء العام، بل هناك فهم معاصرة متعددة لمسألة القضاء والقدر، من قبل الكثير من المفكرين ومن داخل المنظومة الإسلامية، ولعل أبرز من تناول هذه المسألة في الوقت الحالي وبشكل مختلف عن الطرح السابق هو المفكر محمد شحرور الذي تفرد بقراءة منطقية تحترم متطلبات الفهم بالرجوع للنص القرآني لهذه المسألة، وهذا ما نود توضيحه في العنصر الآتي.

### 3.مسألة القضاء والقدر عند محمد شحرور وتجاوز الطرح الفقهي التقليدي لها:

ينطلق محمد شحرور في مشروعه الفكري من جانبين، جانب نقدي، وجانب بنائي.

#### 1.3. الجانب النقدي:

الجانب النقدي يسعى من خلاله محمد شحرور إلى تفكيك، ونقد بنى التراث الفقهي الذي وصلنا من السلف، واتخذ سمة المقدس، وأنتج فكرنا وانعكس على واقعنا، وبالتالي هو المسؤول عن إخفاق نهضتنا، حيث تبين لنا مؤلفات محمد شحرور أن العقل الفقهي السلفي، عمل على تعطيل العقل العلمي، وجعله عاجزا عن إنتاج المعرفة، وتمسكنا بالتراث هو ما جعل منا أمة مأزومة مهزومة، وجعل ثقافتنا بسيطة سطحية، وحال دون الرؤية الاستشرافية لمستقبل

الإنسان، يقول محمد شحرور: " فمنعه تفعيل الفكر المنفتح والمسائل عن الجدوى" (محمد شحرور، 1990، صفحة34)، حيث يتكلم محمد شحرور عن العقل السلفي الفقهي الحالي وعرفه بأنه: "دعوة إلى إتباع خطى السلف بغض النظر عن مفهوم الزمان والمكان، أي أن هناك فترة تاريخية مزدهرة مرت على العرب استطاعوا فيها حل مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، واستطاعوا أن يبنوا دولة قوية، استطاعت تحقيق العدالة بمفهومها النسبي التاريخي، وبالتالي بالنسبة للعقل السلفي الحالي فإن هؤلاء السلف النموذج" (محمد شحرور، 1990، صفحة34)، "ويجب علينا أن نتبع خطاهم ونقلدهم ولا نخرج عن نمطهم" (محمد شحرور، 1990، صفحة34)، فالسلفي هو إنسان مقلد إضافة إلى أنه قد أهمل الزمان والمكان واغتال التاريخ وأسقط العقل.

ويعيش السلفي في القرن العشرين مقلدا القرن السابع الميلادي، والتقليد مستحيل لأن ظروف القرن السابع تختلف عن ظروف القرن العشرين، فمهما حاولنا الرجوع إلى القرن السابع لا يمكننا أن نفهمه كما فهمه أهله الذين عاشوه فعلا، لأننا نرجع إليه من خلال نص تاريخي فقط، ولهذا السبب وقع السلفي في فراغ فكري وصل إلى حد السذاجة، فقد ترك القرن العشرين عمدا ليعجز في الوقت نفسه عن أن يعيش القرن السابع كما عاشه أهله، وهذا هو حال السلفية، "فإنها هروب مقنع من مواجهة تحديات القرن العشرين وهزيمة نكراء أمام هذه التحديات وهي البحث عن الذات في فراغ وليس في أرض الواقع" (محمد شحرور، 2008، الصفحات 25، 26).

وبالرجوع إلى مسألة القضاء والقدر يرى محمد شحرور أن تعريف القضاء والقدر تم وضعه في العهد الأموي على أن القضاء هو " علم الله الأزلي"، وأن القدر هو نفاذ هذا العلم على أرض الواقع ويعطينا مثال على ذلك "سبق في علم الله أن بني أمية سوف يحكمون، وبالتالي فلا بد أن يصبح حكم بني أمية واقعا" (محمد شحرور، 1990، صفحة 409).

ويرى أن هذا الفهم قد أدى إلى بروز العقيدة الجبرية وانعكاسها بين العامة بالقول أن كل شيء مكتوب، وأن عمر الإنسان مكتوب ورزقه مكتوب ... وهذا ما أنتج العقل الجمعي الذي تكلمنا عنه في السابق.

وعلى هذا الأساس وإيماننا منه بأنه لا سبيل إلى الخروج من برائن التخلف والفهم الساذج إلا بالرجوع إلى المصحف الشريف، وإعادة قراءته بنظرة معاصرة، وإعادة النظر في الكثير من المفاهيم الموجودة بين دفتي المصحف وتحرير معانيه من هيمنة فهم هؤلاء الفقهاء وتجاوز موقف الصحيحين من السنة النبوية.

مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش  
- من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

2.3. الجانب البنائي:

وهذا ما يمثل الجانب البنائي في مشروعه حيث يرى أن إنسان القرن العشرين يجب أن يقرأ النص القرآني ضمن مستوى معارفه وأدواته المعرفية، وواقعه المعاش ومعطيات المجال المكاني والزماني ومشاكله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فيكشف فيه أشياء لم يستطع سلفه اكتشافها، وفقا لمعطيات عصره، يقول متبنيا منهجية في فهم النصوص والعمل بها "نحن قرأنا التنزيل الحكيم على أنه خاتم الرسائل بعيون وعقل عصر ما بعد الرسائل على أساس أنه جاء للأولين بمستوى أي قرؤوه بعيونهم وبمستوى معارفهم، ولنا بمستوى آخر نقرأه بعيوننا وبمستوى معارفنا، ولا يمكن أن تكون الصلاحية إلا هكذا" (محمد شحرور، 2008، الصفحات 25، 26)، وبهذا الفهم يكتسب النص صفة الحياة، ويغدو ديناميكيا من حيث المحتوى، ويتحرك وفق العدة المعرفية والمنهجية للقارئ، وانطلاقا من ذلك يتم تحرير قراءة النص من أسرار القراءة الفقهية التي أعطته طابع القداسة، وهذا ما يتجلى في فهمه وقراءته لمسألة القضاء والقدر بشكل يختلف عن القراءات الفقهية السابقة.

يحاول محمد شحرور بمنهجيته تلك أن يبين لنا مفهوم القضاء والقدر انطلاقا من فك وتوضيح لبعض مفاهيم التنزيل الحكيم التي يرى أنها مفاهيم مغلوطة في التراث ومن هذه المفاهيم نجد:

- علم الله:

إن الوقوف عند مفهوم علم الله مسألة جد مهمة وتتعلق مباشرة بمسألة القضاء والقدر، لذلك يطرحها محمد شحرور في كتابه الكتاب والقرآن قراءة معاصرة حيث يرى "أن علم الله نظام معرفي تجريدي بحث" (محمد شحرور، 1990، صفحة 386)، أي لا يحتاج إلى وسيلة حسية كما هو الحال عند الإنسان، ويحمل صفة كمال المعرفة، وهو يقيني كامل بالأحداث والأشياء القائمة والموجودة ويحيلنا إلى نصوص القرآن ومنها قوله تعالى: (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) "الأنعام 80"، "ولكنه احتمالي" (محمد شحرور، 1990، صفحة 387) بمستقبل السلوك الإنساني، وهنا احتمالي لا تعني النقصان بل حتى تفتح للإنسان حرية الإرادة باعتباره خليفة الله في الأرض، وفيه شيء منه "نفخة الروح"، فنحن بالنسبة له لسنا لهوا يلهو بنا، ولكي يبين حرية الاختيار للإنسان، وأن الإنسان الفرد لحظة اختياره لأمر ما ينتقل هذا الأمر من علم الله الكلي إلى علمه المصنف الذي سيسجله على الإنسان، فإذا اختار الإنسان الكفر بملء اختياره كان مسؤولا عليه مسؤولية كاملة، وإذا اختار الإيمان كذلك كان مسؤولا عليه، فهذا الاختيار ينتقل من باب المعرفة الكلية للاحتتمالات جميعا إلى باب التصنيف الشخصي لأعمال الإنسان التي يختارها من ضمن المعرفة الكلية لله،

وبهذا يكون الاختيار الإنساني لسلوكاته وأفعاله بإرادته هو وليس إجبار من الله، ويقدم لنا محمد شحرور مثال على ذلك فيقول: "أن الله تعالى يعلم كل الاحتمالات التي يمكن أن يسلكها الإنسان، ولكن الإنسان حر في اختياره الذي يختاره من بين كل هذه الاحتمالات ولا يفاجئ هذا الاختيار الله، فاحتمال الإيمان والكفر موجودان في علم الله، ولما آمن أبو بكر لم يفاجئ الله تعالى، ولما كفر أبو جهل أيضا لم يفاجئ الله" (محمد شحرور، 1990، صفحة 390)، ولذلك فالله يعلم كافة الاحتمالات أمام "زيد من الناس" قبل اختياره احتمالا، ويعلم ما اختاره زيد فور اختياره. لكن لحظة الآن تركها لزيد ليقررها، وفي هذا نلاحظ أن الحرية متروكة لزيد، والله لم يجبره على اختيار بعينه، وهذا عين العدل وكمال العلم، يقول الله تعالى: (هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) "الجاثية 29".

- قضاء الله وقدره:

ينطلق محمد شحرور في بحثه عن مفهوم القضاء في القرآن من خلال التمييز بين عدة مفاهيم للقضاء حسب سياق كل آية وما ترمي إليه حيث نجد:

- قضى بمعنى أخبر: قوله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) "الحجر 66".
  - وقضى بمعنى أمرض نهي: قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...) "الإسراء 23".
  - وقضى بمعنى أنهى الشيء: قوله تعالى: (فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ) "الأحزاب 23".
  - وقضى بمعنى الإرادة الإلهية النافذة (محمد شحرور، 1990، صفحة 395): قوله تعالى: (وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) "البقرة 117".
- وهذا المفهوم الأخير هو ما يتعلق بمسألة القضاء والقدر موضوع هذا البحث.

حيث يرى محمد شحرور من خلال هذه المفاهيم السابقة والمفهوم الأخير الذي يعني مسألة القضاء والقدر، وجاء في الآية الأخيرة مصاغ بصيغة صارمة وثابتة فقول الله هو الحق: (قَوْلُهُ الْحَقِّ) "الأنعام 73"، وكلماته هي عين الموجودات لقوله: (يُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) "الأنفال 07"، وقضاؤه المبرم لا ينفذ إلا من خلال المقدرات لقوله (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) "الأحزاب 38".

أي القوانين الموضوعية للكون، وقضاؤه النافذ غير أرلبي "إذا أداة شرط" ولو كان نافذا منذ الأزل لقال "فإنما يقول له كن فكان" فقد أطلق القدرة ب"يكون"، وهذا الإطلاق قابل للتغيير والتبديل تبعا لمشيئة الله ولوقوف الإنسان، وفيما عدا قوانين الكون "الأقدار" التي لا تتبدل كالليل

## مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش

- من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

والنهار والموت والحياة ودوران الأرض وتعاقب الفصول وتشكل الغيم، "يستطيع الإنسان بما أوتي من معرفة أن يقضي في الموجودات" (محمد شحرور، 1990، صفحة 414).

ويفهم من ذلك أن القدر هو الوجود الموضوعي للأشياء وظواهرها وقوانينها الناظمة للوجود التي قدرها الله "وجود موضوعي" سواء عرفها الإنسان "داخل الوعي الإنساني" أم لم يعرفها "خارج الوعي الإنساني".

وكمثال لتبسيط ذلك أن قوانين الجاذبية، والكهرباء، والكيمياء، والفيزياء... على أنواعها وتأثيراتها كانت موجودة في الكون قبل أن يكتشفها الإنسان "كانت موجودة موضوعيا خارج الوعي الإنساني"، وكانت تفعل فعلا في الطبيعة دون أن يعرفها الإنسان، وبعد أن اكتشف الإنسان هذه القوانين وأفعالها وتأثيراتها صارت وجود موضوعي داخل الوعي الإنساني.

ومنه يصبح القضاء هو ظاهرة تتعلق بالسلوك الإنساني الواعي "إرادة إنسانية"، "فالإنسان حين يدرك ظواهر الطبيعة والأفعال المقدره فيها يتمكن من ممارسة القضاء" (محمد شحرور، 1990، صفحة 432)، فهو قائم على الحركة الواعية بين النفي أو الإثبات في أي قرار إرادي واعي في ظواهر الوجود "القدر".

وبالتالي فإن القضاء وفق ما سبق يتولد دوما من القدر من خلال المعرفة المتحركة دائما والتي تعتبر المقادير أعلى شكل للتعبير عنها، "وبما أن المعرفة الإنسانية لظواهر الوجود متحركة دائما إلى الأعلى فإن القضاء الإنساني أيضا يأخذ نفس الاتجاه" (محمد شحرور، 1990، صفحة 434)، أي كلما زادت معرفتها بالمقدرات كلما زاد قضاؤنا فيها نفيا أو إثباتا.

وهنا نلاحظ أن محمد شحرور أعطى أهمية للحرية الإنسانية وربطها بمسألة القضاء والقدر فالحرية هي القضاء مع القدر في العلاقة بينهما وهي المعرفة، فالذي لا يعرف شيئا لا يقضي شيئا ولا يطلب شيئا.

ومثال على ذلك "جسم الإنسان"، كليات الطب تدرس الأجهزة المختلفة للجسم البشري، جهاز الهضم، جهاز دوران الدم، جهاز التنفس، ... خلق الإنسان مع أجهزته هذا مقدر من الله للقيام بوظيفته، أي قدر الله جهاز الدوران في جسم الإنسان لأداء وظيفته ضخ ونقل الدم هذا الكتاب مقدر من الله، ونحن في كليات الطب ندرس قدر الله في جهاز الدوران هذا لكي نستطيع أن نقضي به بالتدخل أو العمليات الجراحية، أي معرفتنا بالمقدرات للكتب الموجودة في الطبيعة ووظائفها تمكننا من التدخل فيها، أي القضاء فيها، فالطبيب يقضي أولا بإعطاء الدواء أو إجراء عملية جراحية، ومنه فالقضاء عملية واعية بين نفي أو إثبات في وجود.

وهنا نلاحظ أن الجانب المعرفي للإنسان ومدى تطوره يلعب دورا محوريا في تكريس الشعور بالحرية من عدمه، فالجهل بقوانين الطبيعة والإنسان يدفع الإنسان نفسه إلى الحالة الدائمة

للغيب والقدر، وبالتالي حالة الجبر والسكون التي تكلمنا عليها في ما سبق عند الطرح الفقهي القديم، أما المعرفة فتؤدي إلى الوقوف بشكل موضوعي على حقائق الأشياء بحرية كاملة.

فالحرية إرادة إنسانية واعية دائمة الحركة بين النفي والإثبات في الأضداد، أي في ظواهر الوجود وليس كما تعرف على أنها وعي الضرورة، "لأن وعي الضرورة لا يكفي لممارسة الحرية، فهذا شرط غير كاف لممارسة الحرية فالإنسان يمارس حريته حين يكون هناك مجال للاختيار بين ضدين" (محمد شحرور، 1990، صفحة 435).

تلك الممارسة للحرية بين الضدين هي التي تحقق وجود الإنسان في المجتمع والتاريخ، "فالإنسان يتعامل مع الممكن" (زكرياء إبراهيم، 1957، الصفحات 142، 143).

وبذلك تكون إرادته سابقة عن الفعل المراد، حيث تكون هناك وقفة الاختيار، "فيكون أمام الإنسان سبيلان إما أن يفعل أو لا يفعل" (محمد أحمد عبد القادر، 2000، صفحة 70).

فالإنسان ولد حرا مخيرا منذ آدم إلى يومنا هذا، ولكي يمارس هذه الحرية يجب أن تتوفر له المعرفة وخيار بين ضدين، فالله يقضي وهو كامل المعرفة، والإنسان يقضي وهو ناقص المعرفة. وكلما ازدادت معرفته صارت خياراته أوسع وازدادت حريته، فالقدر بلا قضاء هو حالة سكونية يعيش الناس فيها كالقطيع، هناك من يقضي عنهم في أمورهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفي كل المجالات، وهذا ما يفسر تكريس النظم المسيطرة والمستبدة التي تحاول دائما حجب المعرفة عن شعوبها للسيطرة عليها وإيهامها بالجبرية حتى يدوم التحكم فيها، وقد وجدت في الطرح السابق والفهم الفقهي لمسألة القضاء والقدر ما يعينها على ذلك وهو ما عملت السلطة السياسية خاصة على تكريسه وعدم فتح المجال لما عداه مما تسبب في حالة من التأخر العلمي وخلق ذهنية اجتماعية تعتقد أن كل المسائل من موت ورزق وحظ ... مقدر من الخالق سلفا ومكتوب عليها ولا يمكن أن تتدخل فيه لأنه من ذات عليا تبدو أكثر تسلطا ومن ثمة تعلن عجزها وتبرر فشلها بها.

وهكذا يتحول مفهوم الوعي الجمعي، "من مجموعة المعتقدات والعواطف المشتركة لدى المجتمع الواحد والذي يشكل نظاما اجتماعيا محددًا له حياته الخاصة" (عبد العزيز الغريب، 2009، صفحة 156) إلى إدراك الفعل الجمعي للمجتمع لحقيقة الواقع على حقيقته.

وبذلك يعتبر محمد شحرور من المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بتجديد الخطاب الديني وإخراجه من الطابع المحلي السكوني المغلق، إلى طابع العالمية والانفتاح، وذلك من خلال التعامل مع النص القرآني بآليات ومناهج معاصرة، تتماشى مع الأرضية المعرفية لإنسان القرن الواحد والعشرين، وتبقى هذه القراءة اجتهاد قابل للمراجعة كما يقره بذلك.

مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش  
- من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

4. خاتمة:

يمكن أن نصل من خلال هذه الورقة البحثية إلى النتائج الآتية:  
حاولنا في هذه المعالجة الفكرية لمسألة القضاء والقدر بين الموروث الفقهي والاجتهاد العقلي العصري، التوظيف الإبيستيمولوجي لآلتي الهدم والبناء قدر المستطاع (تحديد العوائق المكرسة للفهم الزائف، والمشكلة للعقل الجمعي، وإحداث القطيعة معها للتأسيس لوعي عقلائي، يركز على خاصيتي الحرية والإرادة الإنسانية في التفاعل مع مشكلة القضاء والقدر تفقها وممارسة من خلال رؤية محمد شحرور.

حيث بين محمد شحرور من خلال تقديمه لمشروع فكري عصري، قائم على التأسيس لوعي عقلائي، يركز على الحرية، والإرادة الإنسانية في التفاعل مع مشكلة القضاء والقدر، وبعيد عن التطرف والعنف والاستبداد والانغلاق، من خلال ما دعا إليه من إعادة قراءة التنزيل الحكيم، قراءة عصرية وبمناهج عصرية وآليات تتماشى مع ما توصلت إليه المعرفة الإنسانية في مختلف المجالات، والتي أصبحت ضرورة ملحة للخروج من المأزق الذي تعيشه ثقافتنا العربية الإسلامية التي كونها الفقه، من خلال قراءة ما قدمه السلف، وهو مجرد اجترار ودفاع عنهم، لأن تلك القراءة كانت تناسب مرحلة زمنية محددة عاشها هؤلاء فقط، لذلك فإن تجاوزها هو المفتاح الأول لتجديد القراءة للتراث والخطاب الديني السكوني، وجعله عصري، وقادر على حل مشكلاتنا المعاصرة، وهذا في كل المسائل وبصفة عامة.

أما مسألة القضاء والقدر باعتبارها من أهم المسائل المطروحة في الفكر العربي والإسلامي، يرى محمد شحرور أن تعريف القضاء والقدر تم وضعه في العهد الأموي، على أن القضاء هو علم الله الأزلي وأن القدر هو نفاذ هذا العلم على أرض الواقع، وهذا الفهم قد أدى إلى بروز العقيدة الجبرية وانعكاسها بين العامة بالقول أن كل شيء مكتوب ومحدد بصفة سابقة، وهذا ما رسخه العقل الفقهي في ثقافتنا، فأنتج العقل الجمعي بكل تجلياته في واقعنا.

لقد قرأ محمد شحرور مسألة القضاء والقدر بشكل مختلف، وبرؤية تنفلت من محدودية العقل الفقهي المتمرس خلف التراث، ويرى أن العلاقة بين القدر الإلهي، والفعل الإنساني الذي هو القضاء تتحدد بالمعرفة، ومنه يصبح القضاء هو ظاهرة تتعلق بالسلوك الإنساني الواعي "إرادة الإنسان"، فالإنسان حين يدرك ظواهر الطبيعة والأفعال المقدره فيها يتمكن من ممارسة القضاء، فكلما زادت معرفتنا بالمقدرات زاد قضاؤنا فيها، فالقضاء عملية واعية بين نفي أو اثبات في الوجود "القدر"، وبالتالي فالقضاء وفق هذا المفهوم يتولد دائما من القدر، من خلال المعرفة المتحركة دائما وفي حدود استعمال الإنسان لمؤهلاته المعرفية التي تمكنه من الاكتشاف والابتكار في زمانه المعاصر له.

رؤية محمد شحرور إلى مسألة القضاء والقدر جاءت متصالحة مع النص القرآني المؤسس لها ومتجاوزة في الوقت نفسه لمحدودية العقل الفقهي وتشبثه بالتراث بشكل مطلق، وكانت داعية إلى القراءة والفهم بشكل مستمر، وإلى الاجتهاد في فهم النص الديني، لأن النصوص الدينية الإلهية بحاجة في كل مرة لإعادة القراءة، حسب تغير الأزمان وتقدم المعارف، وهذا واجب كل إنسان، وكل جيل ضمن ظروفه ومعطياته ومتطلباته، إلى أن تقوم الساعة.

وهكذا وفي اعتقادنا فقد استطاع محمد شحرور بمنطقه ووجته البالغة أن يكسر حاجز الانغلاق للعقل الجمعي الذي كونه القراءة الفقهية لمسألة القضاء والقدر، ونجد أن فكر محمد شحرور هو أفضل طريق للبناء المعرفي السليم، والتخلص من واقعنا المزري بين التخلف والضعف والفراغ والهزائم، وهذا في تصورنا الشخصي من خلال تحليلنا لهذه المسألة.

### قائمة المراجع

- القرآن الكريم برواية ورش.
- ابن تيمية، 1997، مجموع الفتاوى. ج 28، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر.
- أحمد الدسوقي، فاروق، 1985، القضاء والقدر في الإسلام، ج 1، القاهرة، دار الاعتصام للطباعة والنشر.
- أشرف، حافظ، 1999، الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي مشكلة وحل، تاجوراء، طرابلس، ليبيا، دار النخلة للنشر.
- الألباني، 1995، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
- بن نبي، مالك، 2002، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، بيروت، لبنان، دار الفكر المعاصر.
- حجازي، مصطفى، 2005، التخلف الاجتماعي - مدخل إلى سوسيولوجية الإنسان المقهور، ط 9، الدار البيضاء المغرب المركز الثقافي العربي.
- الحيدري، كمال، 2012، القضاء والقدر وإشكالية تعطيل العقل الإنساني، سلسلة مفاهيم قرآنية، عقائدية، أخلاقية 04، د ط، د ب، المكتبة الالكترونية الشاملة 04 لرفع ونشر الكتب، يوسف الرميض.
- عبد الجواد، ياسين، 1998، السلطة في الإسلام، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- عبد العزيز، الغريب، 2009، نظريات علم الاجتماع، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية.
- محمد شحرور، 1990، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، دمشق، سوريا، الأهالي للطباعة والنشر.
- محمد شحرور، 2008، تجفيف منابع الإرهاب، مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة، دمشق، دار الأهالي للنشر والتوزيع.

## مسألة القضاء والقدر في الفكر الإسلامي وتأثيرها على واقعنا المعاش

### - من الطرح الفقهي وتشكيله للعقل الجمعي إلى تصور محمد شحرور للمسألة-

- 
- محمد، أحمد عبد القادر، 2000، قضية العدل، تنزيه الله في أفعاله، الفكر الإسلامي بين الإبداع والابتداع، الموسوعة الإسلامية، دب.
  - محمد، كمال مصطفى، 2016، ثقافة التقدم- المشكلة والحل – مؤسسة فريد ريش ايبرت، مصر، مكتبة مصر.
  - النجاري، 2005، خلف أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، الناشر دار الأطلس الخضراء.
  - زكرياء، ابراهيم، 1957، مشكلة الحرية، القاهرة، مكتبة مصر.
  - الوادعي، حسن، 2019، علم النفس الديني، موقع مرايانا، اطلع عليه في 15 جويلية 2019.
  - <https://marayana.com/avis/حسين-الوادعي-التدين-قد-يكون-مرضاً-نفسى/>